

التعمية عند العرب

داودي زينب . طالبة دكتوراه

تحت إشراف: أ. د/ مصطفى حبيب شريقن

الملخص :

يهدف هذا البحث إلى الحديث عن التعمية كأحد أوجه الاستعمال اللغوي عند العرب، و الذي يثير الكثير من الإشكالات المعرفية في تعريفه كصطلح، وفي نشأته، و في كثير من متعلقاته ، هذه الإشكالات التي نحاول ها هنا التطرق لبعضها، في ضوء ما توفر من معطيات .

تحمل التعمية معنى الغموض و الإخفاء ، وهي فن كانت له إرهابات منذ العصر الجاهلي ، فقد كان العربي يجتهد في إخفاء مقصوده و غرضه في بعض المواقف والظروف ، لأسباب متعددة اختيارا أو اضطرارا ، و بأساليب مختلفة أيضا. لكن هذه الأساليب ليست عشوائية بل هي دقيقة، ذات أسس مستمدة من خصائص الصوتية والخطية للغة العربية اكتشفها أصحابها، تحت وطأة الحاجة، واعتنوا بهذا الفن، جمعا ورواية، بل راحوا يؤلفون فيه الكتب و الرسائل. فالموضوع من الأهمية بمكان، من فنّ غريب خفيّ مغمور بين آداب العرب، يجعله كثير من أبناء العربية، بدءا من العنوان، فما بالك بالمضامين؟ ولهذا نرى الحاجة شديدة لتجلية جوانب من هذا الموضوع في هذا المقال المختصر.

الكلمات المفتاحية : التعمية - الغموض - الوضوح - التشفير - كسر الشفرة، وفكّها.

تمهيد:

لطالما تعلق العرب بلغتهم و تفتنوا في استعمالها افتنانا، أسفر عن أدب راقٍ كَمَا وكيفا ، ذي مكانة غالبت الأيام وسايرت الأزمان، ولاءمت والأوضاع ، فتنوّعت لديهم الصور والأساليب جلاء و خفاء وتلوّنت تبعاً لها طرائق الاتصال؛ ومن هذه الأساليب فنّ التعمية، وطرق استخراج المعنى، وهو من المباحث التي لم تحظ بالدراسة كثيرا. من أجل هذا تناولت هذا الأسلوب العتيق للتعريف به وتجليه جانب منه، ليكون حاملا لطلبة العلم، ومادة رغبة للباحث التّهم، يستزيدها فتريده ، وعلى الخصوص من المهتمين بالدراسات اللغوية من أبناء العربية.

فالتعمية مبحث لغوي قائم بذاته ، له وظائف واستعمالات متعددة ، ذات أوجه مختلفة ، وسأتناول هذا الأسلوب في هذا المقال وفق النقاط الآتية:

- 1 - اللغة بين ظاهرتي: الوضوح والغموض.
- 2 - التعمية لغة .
- 3 - التعمية وإشكالية المصطلح .
- 4 - نشأة التعمية عند العرب .
- 5 - جهود العرب وإسهاماتهم في التعمية .
- 6 - من فنون التعمية عند العرب .
- 7 - التعمية بين البساطة والتكلف .

خاتمة: نتأج، وتنبيه لابد منه.

1 - اللغة بين ظاهرتي: الوضوح والغموض:

من المعلوم أنّ الوضوح مطلب أساسي في البلاغة ، وسر من أسرار الفصاحة والبيان ، وما سمي بيانا إلا لإبائه عن مقصود المتكلم ، “ فموضوع الكلام على الإفهام ”⁽¹⁾ . ومدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل والسماع ، إنما هو الفهم و الإفهام ، فبأي شيء بلغته و أوضحت عن المعنى ، فذلك هو البيان في ذلك الموضع ”⁽²⁾ . ولكن قد يكون الغموض مطلباً ، فهاهو المتنبي مرتاح لصعوبة الوصول إلى مراميه، ومعتز يفاخر بما تُحدثه شوارده وغرائبه من جدل واختصام، فيقول :
 أنام ملء جفوني عن شواردها
 ويسهر الخلق جراها و يختصم
 و لو كانت واضحة لما اختصم حولها الناس.

و لقد عدّ ابن سنان الخفاجي (ت 466 هـ) أبيات المتنبي مثلاً في التعقيد والغموض حين قال :
 “لأنا نذهب إلى أن الممود من الكلام ما دل لفظه على معناه دلالة ظاهرة ، ولم يكن خافياً مستغلقاً كالمعاني التي وردت في شعر أبي الطيب ”⁽³⁾ .

ذلك أنّ الغموض عموماً والمعاظلة في الكلام أمر منبوذ في الأصل؛ غير أنّ له مقامات وأغراضاً، يروق فيها ويحسن، ويضفي على العبارة مسحة من الجمال، فيكون غرضاً مطلوباً في ذلك الفنّ؛ كالذي يتوتخى في باب التورية، والملاحن، والمعاياة، والمعتمى والإيهام..وأوغل هذه الأبواب في الخفاء والغموض هو باب التعمية، كما سنتبين.

2 - التعمية لغة :

التعمية: هي أن تُعتمى شيئاً على إنسان. أي أن تبالغ في إخفائه عنه، ومنه في السيرة كان يعتمى..الآثار إلى غار ثور ليصرف عنه قفاة الآثار من قريش الطالبين لرسول الله صلى الله عليه وسلم. و “عتمى معنى البيت تعمية ، أي أخفاه ، ومنه المعتمى من الأشعار.

وقيل : التعمية أن تعتمى على إنسان شيئاً فتلبسه عليه تلييساً ”⁽⁴⁾ .
 فالتعمية لغة تحمل معنى الإلباس والإخفاء، وعدم الإبانة عن المقصود بجلاء .

3 - التعمية وإشكالية المصطلح :

لا مناص من التعرّج على المصطلح ، باعتباره أداة هامة من أدوات البحث العلمي ، فالتعمية اصطلاحاً كما يرى أحد

(1) أبو هلال الحسن العسكري كتاب الصنائع والكتابة والشعر ، تحقيق علي محمد الجاوي ومحمد أبو الفضل ابراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، القاهرة، مصر ، ط 1 ، 1952 ، ص 29 .

(2) أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، البيان و التبیین ، تحقيق محمد عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة، مصر ، ج 1 ، ط 7 ، 1998 ، ص 76 .

(3) ابن سنان الخفاجي ، سر الفصاحة ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، ط 1 ، 1982 ، ص 198 .

(4) ينظر محمد مرتضى الحسيني الزبيدي ، تاج العروس من جواهر القاموس ، تحقيق عبد المجيد قطامش ، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب ، الكويت ، 2001 ، ط 1 ، ج 39 ، ص 108 .

الباحثين المحدثين هي : " تحويل نص واضح إلى آخر غير مفهوم، باستعمال طريقة محددة يستطيع من يعرفها أن يفهم النص ، و استخراجها عكس ذلك ، يجري فيه تحويل النص المعنى إلى نص واضح لمن لا يعرف مسبقا طريقة التعمية المستعملة " (1). هذا في الدراسات الحديثة ، ولكن الحديث عن ضبط المصطلح في نطاق الدراسات القديمة ليس أمرا هينا متاحا ، بل إن الخوض فيه مسلك شائك ، نظرا لأنه لم يكن مضبوطا بما فيه الكفاية ، فها هو البحث في التعمية من بين الميادين التي يجد فيها الباحث نفسه أمام ورطة حقيقية، فبين يديه جملة من المصطلحات، التي تحيل إلى ذات المفهوم عند البعض، وتتمايز عند البعض الآخر .

وجدير بالذكر أن المصطلح الذي يكاد يقترن ذكره بالتعمية هو اللغز، فهناك فريق يميز المعنى، وفريق آخر لا يفرق بينه وبين غيره من المصطلحات وخاصة اللغز، وفيما يلي ذكر بعض آراء كل من الفريقين .

أ - الاتجاه الذي يميز بين المعنى و الألفاظ :

يرى صفي الدين الحلبي (ت 650هـ) أن بين الإلغاز والتعمية فرقا، إلا أنه لم يوضح لنا هذا الفرق، واكتفى بتعريف الإلغاز بأنه : " أن يجيء المتكلم بعدة أوصاف في ألفاظ مشتركة ، من غير ذكر الموصوف ، ويشير بها إلى مقصود مجهول، أو باسم حروفه قابلة للتغيير أو التوجيه ، فإذا أراد كشف الاسم الموصوف ، نبه عليه بتصحيح شيء من حروف الهجاء، أو تبديلها في اسمه، أو نقص شيء منها، أو زيادة، أو وجه من غير هذه الوجوه " (2). أما المؤرخ التركي طاش كبرى زاده (ت 968هـ) فقد فصل بين علم الأحاجي و الأغلوطات، وعلم الألفاظ و المعنى، و هو بذلك يرى أن علم الأحاجي الأغلوطات هو من فروع اللغة و الصرف والنحو، لأنه علم يبحث فيه عن الألفاظ المخالفة لقواعد العربية بحسب الظاهر، ومثل له بمحاجة صاحب الكشاف، أما علم الألفاظ فهو يضعه فرعا من فروع علم البيان ، لأن الألفاظ دلالة الألفاظ على المراد، دلالة خفية في الغاية، لكن لا بحيث تنبو عنها الأذهان السليمة، بل بحيث تستحسنها وتنشرح إليها ، بشرط أن يكون المراد من الذوات الموجودة في الخارج، وأما إن كان المراد اسم شيء سواء كان من الإنسان أو غيره ، يسمى معنى (3).

فهذه بعض الآراء التي تحاول الفصل بين المعنى واللغز، لكنها لا تدلنا على فرق بين بينهما.

ب - الاتجاه الذي يرى أن اللغز هو المعنى :

يرى أصحاب هذا الاتجاه أن اللغز هو المعنى وهو الرأي الغالب ، ومن أصحاب هذا الرأي ابن الأثير (ت 637هـ) إذ يقول : " و اللغز هو الطريق الذي يلتوي ويُشكّل على سالكه ، وقد يسمى هذا النوع أيضا المعنى " (4). ومثله صاحب الطراز العلوي (ت 705هـ) الذي يقول: "الإلغاز من قولهم لغز، ويقال له المعنى أيضا " (5). وهو ما يذهب إليه كذلك ابن فرحون

(1) محمد مراياتي، و يحي مير علم، و محمد حسان الطيان ، علم التعمية و استخراج المعنى عند العرب ، دار طلاس ، سوريا ، دط ، دت ، ص 9

(2) صفي الدين الحلبي ، شرح الكافية البديعية في علوم البلاغة و محاسن البديع ، تحقيق نسيب نشاوي، دار صادر، لبنان ، ط 2 ، 1992 ، ص 212 .

(3) ينظر طاش كبرى زاده أحمد بن مصطفى ، مفتاح السعادة ومصباح السيادة في موضوعات العلوم ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، ط 1 ، 1985 ، ج 1 ص 250 .

(4) ضياء الدين ابن الأثير ، المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر، تقديم أحمد الحوفي و بدوي طبانة ، دار نهضة مصر، مصر ، دط ، دت ، ج 3 ، ص 84 .

(5) يحي بن حمزة بن علي ابن ابراهيم العلوي اليمني ، الطراز، تحقيق عبد الحميد هندواي ، المكتبة العصرية، لبنان ، ط 1 ، 2002 ، ج 3 ، ص 38 .

(ت 799 هـ) في قوله: " ما يعنى من الكلام يسمى اللغز: يقال ألغز الكلام ، و ألغز فيه إذا عمى مراده و أضمره على خلاف ما أظهره ⁽¹⁾ .

و يؤيد هذا الاتجاه البقاعي (ت 885 هـ) الذي يرى أن: " أصل اللغز في كلام العرب التعمية عن المطلوب بصرف الطريق إليه عن وجهه المعروف ، فيصير ظاهر الكلام كما يمتنع حتى يعرف باطنه ⁽²⁾ .

و في ذات السياق يرى صاحب الأنوار صدر الدين المدني (ت 1120 هـ) أن الإلغاز في الاصطلاح: " أن يأتي المتكلم بكلام يعمي به المقصود، بحيث يخفى على السامع، فلا يدركه إلا بفضل تأمل ومزية نظر ⁽³⁾ .

و إذا كانت هذه الآراء كلها تجمع على أن التعمية هي الإلغاز ، فإن ابن أبي الأصعب (ت 654 هـ) الذي يضع باب الإلغاز و التعمية ، يضيف مصطلحا آخر هو المحاجة فيقول :

" في هذا الباب و يسمى المحاجة ، والتعمية أعم أسائه، وهو أن يريد المتكلم شيئا فيعبر عنه بعبارات يدل ظاهرها على غيره ، وباطنها عليه ، وهو يكون في النثر والشعر ⁽⁴⁾ . ومثله ابن حجة الحموي (ت 837 هـ) الذي يقول: " الألغاز وتسمى المحاجة والتعمية ، وهي أعم أسائه، وهو أن يأتي المتكلم بعدة ألفاظ مشتركة ، من غير ذكر الموصوف، ويأتي بعبارات يدل ظاهرها على غيره ، وباطنها عليه ⁽⁵⁾ .

أما النويري (ت 733 هـ) فيذكر لنا عدّة مصطلحات : المعاية، والعويص، والرمز ، والمحاجة ، وأبيات المعاني ، والملاحن ، والمرموس، والتأويل، والكتابة، والتعريض، والإشارة، والتوجيه، والمعنى، والممثل. ولم يكتف بذكر هذه المسميات بل أضاف إضافة هامة، وهي أن معنى جميع هذه المسميات واحد. يقول شارحا رأيه: " فإنه إذا اعتبرته من حيث إن واضعه كان يعاينك أي يظهر إعياءك، وهو التعب سميته معاية. وإذا اعتبرته من حيث صعوبة فهمه واعتياص استخراجه ، سميته عويصا. وإذا اعتبرته من حيث إنه قد عمل على وجوه وأبواب، سميته لغزا، وفعلك له إلغازا. وإذا اعتبرته من حيث إن واضعه لم يفصح عنه، قلت رمز وقريب من الإشارة. وإذا اعتبرته من حيث إن غيرك حاجك أي استخراج مقدار عقلك ، سميته محاجة. وإذا اعتبرته من حيث إنه استخراج كثرة معانيه، سميته أبيات المعاني . وإذا اعتبرته من حيث إن قائله قد يوهمك شيئا ويريد غيره ، سميته لحنا وسميت فعلك الملاحن. وإذا اعتبرته من حيث إنه ستر عنك ورمس ، فهو المرموس والرمس القبر. وإذا اعتبرته من حيث إن صاحبه لم يصرح بغرضه، سميته تعريضا وكناية. وإذا اعتبرته من حيث إنه ذو وجوه ، سميته الموجه وسميت فعلك التوجيه. وإذا اعتبرته من حيث إنه مغطى عليك، سميته معنى ⁽⁶⁾ . إن هذا القول وإن كان فيه طول، ففيه تخرج ذكي

(1) برهان الدين ابراهيم بن فرحون ، درة الفواص في محاضرة الخواص، تحقيق محمد أبو الأجناف و عثمان بطيخ ، دار التراث ، مصر ، د ط ، د ت ، ص 28 .

(2) ابراهيم بن عمار بن حسن البقاعي ، الأجوبة السرية عن الألغاز الجزرية ، تحقيق جمال بن السيد بن رفاعي الشايب، مكتبة أولاد الشيخ للتراث ، مصر ، د ط ، د ت ، ص 23 .

(3) علي صدر الدين بن معصوم المدني ، أنوار الربيع في أنواع البديع ، تحقيق شاكور هادي شكر، مطبعة النعمان ، العراق ، ط 1 ، 1969 ، ج 6 ، ص 40 .

(4) ابن أبي الأصعب المصري ، تحرير التحبير في صناعة الشعر و النثر و بيان إعجاز القرآن ، تحقيق حفني محمد شرف ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، مصر ، ط 1 ، د ت ، ص 579 .

(5) تقى الدين أبو بكر علي ابن حجة الحموي ، خزانة الأدب و غاية الأرب ، شرح عصام شعيق، دار الهلال ، لبنان ، ط 1 ، 1987 ، ج 2 ، ص 342 .

(6) شهاب الدين النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، تحقيق مفيد قميحة وآخرين ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، ط 1 ، 2004 ، ج 3 ، ص 155 .

لإشكالية المصطلح يمكن الاعتماد عليه، وتبنيّه عن قناعة من أجل الخروج من إشكالية كانت ستحل بصعوبة لولا هذا المنفذ. ورغم ذلك لا يسعنا إلا الاعتراف والإقرار بإشكالية مصطلح التعمية إشكالية حقيقية على مستوى الدراسات القديمة .

بعد عرض هذه الآراء والتوجهات، نلاحظ أن أصحاب الرأي الأول ، وإن حاولوا التفريق بين المعنى وغيره من المصطلحات، إلا أنهم لم يجيدوا الإتيان بفارق واضح ودقيق. والواقع أن العنصر الأساسي في كل هذه المصطلحات هو عامل مشترك بينها، وهذا ما يجعل التمييز بينها أمرا صعبا ، و عليه فالدراسة تميل إلى تبني الرأي الثاني ، الأكثر إقناعا وترى أن كل مصطلح من هذه المصطلحات، إنما يعبر عن صورة من صور التعمية ، و ضرب من ضروبها. وكأن تلك الأسماء هي أقسام للتعمية.

وعليه يمكن القول أن التعمية غرض ومرمى يهدف إليه المرسل ، وله من أجل تحقيق هذا الغرض طرق متنوعة، يستعمل منها ما يراه أكثر ملاءمة.

4— نشأة التعمية عند العرب :

تشير الدراسات إلى أن علم التشفير أو التعمية عرف منذ القدم، حيث استخدم في المجال الحربي العسكري ، فقد كان قصدهم من استخدام التشفير هو إخفاء الشكل الحقيقي للرسائل، حتى لو سقطت في يد العدو فإنه يصعب عليه فهمها ، وهو بذلك يهدف إلى الحفاظ على السرية والخصوصية⁽¹⁾. ولا ندري إن كانت فكرة التعمية قد استعيرت من المجال العسكري إلى المجال الأدبي أم أن التشابه مجرد صدفة. ولا ندري أيهما أسبق ظهورا، وأيهما المؤثر ومن المتأثر؟، ويبدو أنها تنقلت بين مختلف تخصصات الأدب فتلقفها الأدباء ناظمهم وناثرهم كما وظفها النحويون ، ولعل هذا ما سبب اضطراب المصطلح ، وبالتالي اعترى التعمية شيء من الغموض واللبس .

إننا بحاجة ماسة إلى البحث في تاريخ نشأة هذا الفن عند العرب، إذ لا تتوفر معطيات حول هذا ، إلا بعض الإشارات التي تحتاج إلى مزيد من التحقيق والتدقيق. ولكن يمكن القول إنه فن معروف منذ العصر الجاهلي ، فقد زعم الرواة أن عبيد بن الأبرص الأسدي لقي امرأ القيس، فقال له عبيد كيف معرفتك بالأوابد، قال امرؤ القيس: ألق ما شئت تجدني كما أحببت .

فقال عبيد :

ما حبة ميتة أحييت بميتها دراء ما أنبتت سنا وأضراسا

فقال امرؤ القيس :

تلك الشعيرة تسقى في سنابلها فأخرجت بعد طول المكث أكداسا

فقال عبيد :

ما السود والبيض والأسماء واحدة لا يستطيع لهن الناس تمساسا

فقال امرؤ القيس :

تلك السحاب إذا الرحمن أرسلها روى بها من محول الأرض أيباسا

واستمر هذا الحوار السجالي إلى أن قال عبيد :

(1) محمد مراياتي و يحي مير علم ومحمد حسان الطيان ، علم التعمية و استخراج المعنى عند العرب ، مرجع سابق ،

ما الحاكوم بلا سمع ولا بصر

و لا لسان فصيح يعجب الناسا

فقال امرؤ القيس :

تلك الموازين والرحمن أنزلها

رب البرية بين الناس مقياسا (1).

فهذه الأبيات التي ألقاها عبيد على امرئ القيس تتوفر فيها أركان التعمية ، فقد قصد عبيد إخفاء المعنى ، وعبر عن المقصود بعبارة خفية غير مباشرة، وهدف إلى امتحانه بالسؤال عن شيء معين بلفظ معتمى .
و نستنتج - إن صحت هذه الرواية - أن فكرة التعمية والإلغاز كانت لها إرهاصاتها عند العرب منذ العصر الجاهلي ، واستمرت في العصر الإسلامي وما تلاه، إلا أن تسميتها عرفت اختلافا من زمن لآخر ، بل من شخص لآخر، واصطبغت من كل عصر بصبغته، ومن ذلك الألغاز النحوية التي تزامنت نشأة مع النحو نفسه، فقد روي أن أبا محمد المبارك بن يحيى اليزيدي (ت 202 هـ) و هو أحد المتقدمين من أئمة العربية، امتحن أبا الحسن الكسائي (ت 189 هـ) بحضرة الرشيد بقول الشاعر:

لا يكون العير محررا لا يكون المهر محررا

قال اليزيدي للكسائي: انظر في هذا الشعر هل فيه عيب ؟ قال الكسائي : نعم ، قد أقوى الشاعر ، فإنه لا بد أن ينصب المهر لأنه خبر كان. فقال اليزيدي: أخطأت، الشعر صحيح ، إنما هو: لا يكون العير محررا لا يكون ، فيكون الكلام إلى هنا قد تم ، فابتدأ الكلام بعده (2).

5 - جهود العرب وإسهاماتهم في التعمية:

تشير كتب التراجم إلى العديد من المؤلفات التي تحيل عناوينها إلى التعمية أو اللغز ، منها ما هو مطبوع ، و منها ما هو مخطوط ، ومنها ضائع مفقود. وكتب أخرى لم تتخصص في التعمية، ولكنها خصصت لها أبوابا. و فيما يلي ذكر لبعض الأعلام وإسهاماتهم في التعمية :

ابن طباطبا (ت 322 هـ) : ومن الكتب التي تنسب لابن طباطبا المدخل في معرفة المعنى من الشعر (3).

الفارقي الحسن بن أسد (ت 487 هـ) : وله كتاب الإفصاح في شرح أبيات مشكلة الإعراب (4).

الزمخشري (ت 538 هـ) : وأسهم في التعمية بكتاب ساه المحاجة (5). وقد شرحه علم الدين السخاوي (ت 643 هـ) في كتاب ساه منير الدياجي وفوز المحاجي بحوز الأحاجي، و المعروف بمنير الدياجي في تفسير الاحاجي (1).

(1) ديوان امرئ القيس ، ضبط و تصحيح مصطفى عبد الشافي ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، ط 5 ، 2004 ، ص 85.

(2) ابن هشام الأنصاري ، الألغاز النحوية ، تحقيق موفق فوزي جبر ، دار الكتاب العربي ، سوريا ، ط 1 ، 1997 ، ص 42.

(3) محمد أحمد ابن طباطبا ، عيار الشعر ، تحقيق عباس عبد الساتر ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، دط ، 2005 ، ص 8.

(4) أبو نصر الحسن بن أسد الفارقي، الإفصاح في شرح أبيات مشكلة الإعراب، تحقيق سعيد الأفغاني، جامعة بنغازي ، ليبيا، ط 2، 1974

(5) جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري ، المحاجة بالمسائل النحوية ، تحقيق بهيجة باقر الحسيني ، دط ، 1978 ، مطبعة أسعد

ابن عدلان (ت 666 هـ): علي ابن عدلان بن حماد بن علي الربيعي الموصلية ، انفرد بمعرفة الألغاز ، وكانت له اليد الطولى في حل التراجم والألغاز ، مات بالقاهرة. له "عقلة المجتاز في حل الألغاز" ، و"حل المترجم" ، و"الانتخاب لكشف الأبيات المشككة الإعراب"⁽²⁾ . وقد اعترف ابن عدلان في خاتمة كتابه (الانتخاب لكشف الأبيات المشككة الإعراب) بفضل السبق لكل من ابن المنجوع والفارقي في مجال شرح الأبيات المشككة الإعراب⁽³⁾ .

الملا عصام الاسفراييني (ت 1037 هـ): له شرح منظومة الألغاز النحوية ، وهي رسالة تحوي أرجوزة وشرحا للمؤلف نفسه ، وتدور حول جملة من الألغاز النحوية⁽⁴⁾ .

بالإضافة إلى هذا اشتهرت الألغاز الفقهية ، وألفت في هذا المجال الكثير من الكتب ، نذكر منها على سبيل المثال: "فتيا فقيه العرب" ، وهي ضرب من الألغاز لابن فارس (ت 395 هـ)⁽⁵⁾ .

كانت هذه بعض الجهود التي تناولت التعمية ، ولا شك أن إمعان النظر في التراث العربي ، سيكشف عن مزيد منها وعن كثير غيرها.

6- من فنون التعمية عند العرب:

للتعمية فنون عديدة فقد تكون نحوية ، أو دلالية ، أو حتى صوتية ، سنشير فيما يلي للتعمية نحويا ودلاليا.

أ - التعمية نحويا :

التعمية النحوية هي التي تتخذ النحو مطية لها ، وقد تكون في صورة مسائل نحوية ، أو أبيات ملغزة الإعراب ، وقد تعتمد على التركيب النحوي ، فتتلاعب بمراتب الكلمات أو بمواقع الوقف ومواضعه .

المسائل النحوية :

المسائل النحوية أو الألغاز النحوية " هي مسائل نحوية مسوقة في مسالك المحاجة ، منسوقة في سلوك المعاياة ، لاتستملي منها مسألة إلا سقطت على أملوحة من الأماليح العلمية ، وأفكوهة من الأفأكيه الحكمية ، تراض بشكائهما رياضات الأذهان ، حتى ترجع بعد جمحات الإباء سلسلات العنان"⁽⁶⁾ . ومن المؤلفات فيها كتاب "المحاجة بالمسائل النحوية" للزمخشري ، ومن أحاجيه فيه قوله : "أخبرني عن حرف يزداد ثم يزال ، وأثره باق ما له انتقال . وجوابه هو نون التثنية و الجمع"⁽⁷⁾ .

ومنها منظومة الإسفراييني ومما جاء فيها :

- (1) أبو الحسن علم الدين السخاوي ، منير الدياجي و در التناجي و فوز المحاجي بحوز الأحاجي ، تحقيق سلامة عبد القادر المرافي ، أطروحة دكتوراه ، جامعة أم القرى ، السعودية ، 1985 .
- (2) خير الدين الزركلي ، الأعلام ، دار العلم للملايين ، لبنان ، ط 15 ، 2002 ، ج 4 ، ص 312 .
- (3) علي بن عدلان الموصلية النحوي ، الانتخاب لكشف الأبيات المشككة الإعراب ، تحقيق حاتم صالح الضامن ، مؤسسة الرسالة ، دط ، 1985 ، ص 78 .
- (4) الملا عصام الاسفراييني ، شرح منظومة الألغاز النحوية ، تحقيق علي حسين البواب ، مكتبة الثقافة الدينية مصر ، دط ، 2000 .
- (5) أبو الحسين أحمد بن فارس ، فتيا فقيه العرب ، مجلة المجمع العلمي العربي ، سوريا ، ج 1 ، المجلد 33 ، 1958 ، ص 443-656 .
- (6) جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري ، المحاجة بالمسائل النحوية ، مرجع سابق ، ص 70 .
- (7) المرجع نفسه ، ص 104 .

وجوابه أن ذلك العلم المذكور المؤنث بالعلامة، نحو طلحة فإنه مؤنث اصطلاحاً ويعامل معاملة المذكور⁽¹⁾.

الآيات ملغزة الإعراب :

الآيات ملغزة الإعراب هي " آيات من الشعر مصعبة المباني، مغمضة المعاني، قد ألغز قائلها إعرابها، ودفن في غامض الصنعة صوابها. وهي في الظاهر فاسدة قبيحة، وفي الباطن جيدة صحيحة " ⁽²⁾.

ومن هذه الآيات قول الشاعر :

لا تقنطنَ وكن في الله محتسبا
فبينما أنت ذا يأس أتى الفرجا

فظاهر هذه الآيات يوحي بوجود تجاوزات نحوية، واختلالات إعرابية، ولكن الحقيقة ليست كذلك. وفيما يلي بيان مواضع الإشكال :

" الإشكال الأول : نصبه ذا وحقه الرفع لأنه خبر المبتدأ الذي هو أنت. وجوابه عن نصبه أنه خبر عن كان المضمره تقديره فبينما كنت ذا يأس .

الإشكال الثاني: نصبه الفرجا وحقه أن يكون مرفوعاً. وجوابه عن النصب أنه مفعول بمحتسب تقديره لا تقنطن وكن بالله محتسبا، وفي أتى ضمير يعود على الفرج ، فتقدير الكلام إذا احتسبت في الله الفرج فبينما كنت ذا يأس أتاك الفرج " ⁽³⁾.

ومن القصائد التي ألغز قائلها إعرابها نجد قصيدة أبي محمد سعيد بن المبارك بن الدهان (ت 569 هـ) . التي ضمنها أحاجي وألغازاً نحوية، ليكون ذلك بمثابة التدريب على فهم عبارات العلماء، والموهوم من أساليبهم.

وقد اعتنى بشرح هذه القصيدة ابن الحباز (ت 637 هـ). في كتابه الذي سماه الفريدة في شرح القصيدة قال في مقدمته: "فإني لما قرئت علي القصيدة التي أنشأها الإمام العلامة ناصح الدين أبو عثمان سعيد بن المبارك بن علي المعروف بـ" ابن الدهان"، وجدت مغلقة الأبواب ، مسدولة الحجاب ، لما أودعها من عويص الإعراب ، وسلك من طريق الإعراب ، فعمدت لكشف مستورها، وشرح مسطورها، وسميت ما ألفت من ذلك بـ الفريدة في شرح القصيدة " ⁽⁴⁾.

و مما جاء في هذه القصيدة :

وما الناس خلا بالخليل وسالم
عدولك كذبا يحمد الصحبة الصحبا

هذا البيت الذي اجتهد في شرحه صاحب الفريدة قائلاً : " الناس بحر السين اسم فاعل من نسي ينسى ، وقد حذف الياء واجتزأ بالكسرة ، وخلاً منصوب بأنه مفعول الناس ، كما تقول هذا الضارب زيدا .

(1) الملا عصام الاسفراييني ، شرح منظومة الألغاز النحوية ، مرجع سابق ، ص 10.

(2) ابن هشام الأنصاري ، الألغاز النحوية ، مرجع سابق ، ص 26 .

(3) المرجع نفسه ، ص 30 .

(4) ابن الحباز النحوي الموصلبي ، الفريدة في شرح القصيدة ، تحقيق عبد الرحمن بن سليمان العثيمين ، مكتبة الخانجي ، مصر ، ط 1 ،

والناس في موضع رفع لأنه اسم ما. والخليل في موضع نصب لأنه خبرها. وقوله سال ترخيم سالم ، على قول من قال يا حار بالكسر، و(م) فعل أمرٍ من المين ، وفيه ضمير المخاطب وعدوك منصوب به وكذبا منصوب بمن ، وهو مصدر من غير لفظ الفعل، على حد قولك قعدت جلوسا .

وقوله يحمد مجزوم لأنه جواب شرط، دل عليه فعل الأمر الذي هو (من)، كأنه قال أن يكون عدوك يحمد الصحبة .
الصحبا يحتمل وجهين. الوجه الأول أن يكون من المقلوب، أراد ويحمد الصحب الصحبة ، فالصحب جمع صاحب ، والصحبة مصدر. والثاني أن يكون الصحبة جمع صاحب ، ذكره أبو علي، والصحب مفعول به وهو جمع صاحب أيضا⁽¹⁾ .
فتلك نماذج من التعمية التي تتكأ على النحو، وتحديد الإعراب. وفيما يلي نوع آخر من التعمية النحوية ولكنه لا يعتمد على الإعراب، بل على مراتب التركيب النحوي .

التعمية بالاعتماد على التركيب النحوي :

المبنى نافذة نطل من خلالها على المعنى، وترتيب الكلمات والعبارات محكوم بقواعد ونظم مختلفة ، ولذا فإن أنماط التركيب النحوي تؤثر في أداء المعنى، فكلما ابتعد هذا الترتيب عن النمطية، و اجتاز المعتاد، اقترب من التعمية .
يقول أحد الشعراء :

علثنا بالسيوف المرهفات

أقول لخالداً يا عمرو ليمًا

و هو هنا تلاعب بالألفاظ من خلال إخفاء مواضع الوقف . خالدا مفعول (له) لأنه أمر من ولي يلي ، وعلت فعل ماض ، وناي مفعول به ، والناي الناقفة المسنة ، والسيوف فاعل علت ، تقدير معناه أقول اتبع خالدا لما علت نايي السيوف⁽²⁾ .

ب - التعمية بالدلالة :

قد يعتمد المعنى على السمات الدلالية للعربية، كالمشترك اللفظي الذي أحسن العرب توظيفه، فيما عرف لديهم بالملاحن ، وهي طرق من الكلام كانت العرب تعتمدها إذا أرادت التعمية، وهي من باب إخراج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر، لدفع الحرج اللغوي، فيضمّر المتكلمُ خلافَ ما يظهر. ومن هذه المؤلفات ملاحن ابن دريد (ت321هـ) التي ضمنها جملة من القوالب اللفظية الجاهزة، المبنية على استغلال غرائب القاموس العربي عند الحاجة إليه، لإظهار البراعة، أو تعجيز الخصم؛ كقول أحدهم: والله ما رأيت في البلد عربا ولا عجمًا، فالعرب مصدر عربت معدته إذا فسدت، والعجم من كل شيء نواه أو حبه⁽³⁾ .

7- التعمية بين البساطة و التكلف :

نقل اللفظ من موضعه الذي يشغله في الاستعمال عادة إلى موضع جديد ، هو انعكاس لاجتهاد الشاعر في الخروج عن العرف اللغوي ، وإقامة علاقات جديدة بين المنقول والمنقول إليه. ويساعد ابتكار الكلمات والصيغ على تجديد اللغة وكسر

(1) ابن الخباز النحوي الموصل، الفريدة في شرح القصيدة ، مرجع سابق ، ص 72 .

(2) علي بن عدلان الموصل النحوي ، الانتخاب لكشف الأبيات المشككة الإعراب ، مرجع سابق ، ص 23 .

(3) أبو بكر ابن دريد ، الملاحن ، تحقيق عبد الإله نهان ، وزارة الثقافة ، سوريا ، د. ط ، 1992 ، ص 144 .

قوالها المألوفة⁽¹⁾. وهذا الابتكار قد يكون بسيطاً " فهناك أبيات لم تقصد العرب الإلغاز بها، وإنما قالتها فصادف أن تكون أغازاً"⁽²⁾. كما يمكن أن يكون متكلفاً لا يخلو من صنعة، وقد يبالغ فيه، حتى يصبح سمجاً قبيحاً. ودرءاً لأي تكلف مشين جاءت وصايا اللغويين بضرورة " اجتناب الإشارات البعيدة ، والحكايات المغلقة، والإيماء المشكل"⁽³⁾. وتفادي الإفراط في الإخفاء، الذي يجعل " اللغز بشعاً بارداً لا يستخرج إلا بمسائل الجبر والمقابلة"⁽⁴⁾.

— الخاتمة :

- لقد حاولت الدراسة- في هذه الصفحات المعدودة - الإلماع إلى التعمية عند العرب، وتوصلت إلى النتائج الآتية:
- إنه مثلاً يقصد في الكلام الوضوح والبيان والإفهام، فإنه قد يقصد الغموض والإيهام كما هو الحال واضح في باب التعمية، وما يجري مجراها من الأبواب البلاغية المشار إليها.
 - في التعمية خروج عن الاستعمال النمطي للغة، واتّجاه مفتوح نحو البراعة والإبداع والتألق .
 - التعمية رياضة للفكر، وإنعاش للذاكرة اللغوية.
 - الأبيات الشعرية المعتمة، تسفر عن الصلة الوطيدة بين الشاعر والنحوي، وهذا الأخير يتخذ من الشعر مادة لتأصيل قوانينه، في حين أن الشاعر قد يحاول تجاوز هذه القواعد، ويتمرد عليها مع صرامتها، وتطويعها لرغباته الجارحة.
 - التعمية ميدان للمبارزة الذهنية، وحلبة مشروعة لمعتزك الأقران فضاء للتباهي والاستعراض العلمي .
 - تنبني التعمية على التضليل والتحليل اللغوي، ولكنّه يستمد مشروعيته من هدفه النبيل ، حيث إنه يسعى للرياضة الذهنية وشحذ الذكاء، وإعمال الفكر لحل العويص المشكل وحسن التخلص من الورط وحبائله..
 - التعمية في التراث اللغوي العربي تكشف عن كفاية القدماء اللغوية ، وتمكنهم من تطويع اللغة وفق أغراض متنوعة ، و ما ذلك إلا تعبير عن اقتدار لغوي عال ، إذ التمكن اللغوي سر من أسرار الإبداع ، وهو يكشف عن كثير من خصائص اللغة العربية كالثراء والمرونة .
- وإننا بحاجة كبيرة إلى الكثير من الدراسات في جوانب من هذا الباب ومن ذلك :
- ضرورة تضافر جهود علماء اللغة لضبط المصطلح .
 - الحثّ على جمع و تحقيق مخطوطات التعمية .
 - افتقار المكتبة العربية إلى البحث في أولية التعمية و نشأتها وروادها شعرا و نثرا .
 - علاقة البحث في التعمية، علاقة حميمة بالأدب الشعبي ، فقد حفظت الذاكرة الجماعية العربية عموماً ، و الجزائرية على وجه الخصوص جملة من الألغاز التي تداولتها الأجيال؛ فقد شكّل اللغز ركناً ركينا في الموروث الشعبي الجزائري الشفهي.

(1) محمد العبد ، إبداع الدلالة في الشعر الجاهلي ، دار المعارف ، مصر ، ط1، د. ت ، ص 88 .
(2) جلال الدين السيوطي ، المزهو في علوم اللغة و أنواعها ، شرح محمد أحمد جاد المولى بك وآخري ، المكتبة العصرية ، لبنان ، د. ط ، 1986، ج 1 ، ص 578 .
(3) محمد أحمد ابن طباطبا ، عيار الشعر ، مرجع سابق ، ص 123 .
(4) ضياء الدين ابن الأثير ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، مرجع سابق ، ص 90 .

هذا وإنّ التعمية عند العرب ما زالت سؤالاً ينبغي أن يفهم ، وجانباً من جوانب التراث العربي التي لا تزال بحاجة إلى البحث تحقيقاً وتأصيلاً وتصنيفاً وتقداً.

وفي الأخير يحسن أن نشير إلى أنّ فنّ التعمية الذي تناولناه في هذه المقالة، هو من صميم البحوث البلاغية، المصنفة في البديعيات، غير أنّ هناك جنساً آخر من التعمية، نُحجّج به منحى العلوم، وجُعِل له ضوابط وقواعد، يعتمد على أسس دقيقة في التعمية، وأخرى للتجلية، أو ما يستقى اليوم بـ(التشفير وكسر الشفرة). ويستعمل عادة في الظروف الحرجة التي تتطلب السرية التامة. وجذور هذا العلم قديمة، وتنامت مع العصور، إلى أن صار اختصاصاً يُعنى به ويدرس، إذ تناوله بعض الباحثين المعاصرين تحقيقاً وتأليفاً ودراسة، ومن بين هؤلاء نذكر: الدكتور محمد مراياتي، والدكتور يحيى مير علم، والدكتور محمد حسان الطيّان، الذين اشتركوا في تحقيق ثماني رسائل مخطوطة تحت عنوان "علم التعمية واستخراج المعنى عند العرب".

– كما حقّق الدكتور محمد بن عبد الرحمن الهدلق، رسالة في استخراج المعنى، لأبي الحسن محمد بن طباطبا، وتخصّص الدكتور مروان البوّاب في الإحصاء الحاسوبي، فهو صاحب كتاب: "دراسة إحصائية لدوران الحروف العربية المشكولة"، وأحد المشاركين في تأليف كتاب "إحصاء الأفعال العربية في المعجم الحاسوبي". تأليف: الدكتور مروان البوّاب، والدكتور محمد مراياتي، والدكتور يحيى مير علم، والدكتور محمد حسان الطيّان. وهذا مجال بحث مختلف ينتظر من يتناوله في مقالات أخريات.

ثبت المصادر و المراجع :

1. ابراهيم بن عمار بن حسن البقاعي ، الأجوبة السرية عن الألغاز الجزرية ، تحقيق جمال بن السيد بن رفاعي الشايب ، مكتبة أولاد الشيخ للتراث ، مصر ، د ط ، د ت .
2. ابن أبي الأصبغ المصري ، تحرير التخبير في صناعة الشعر و النثر و بيان إعجاز القرآن ، تحقيق حفني محمد شرف ، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ، مصر ، ط 1 ، د ت .
3. ابن الخباز النحوي الموصلّي ، الفريدة في شرح القصيدة ، تحقيق عبد الرحمن بن سليمان العثيمين ، مكتبة الخانجي ، مصر ، ط 1 ، 1990 .
4. ابن سنان الخفاجي ، سر الفصاحة ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، ط 1 ، 1982 .
5. محمد أحمد ابن طباطبا ، عيان الشعر ، تحقيق عباس عبد الساتر، دار الكتب العلمية، لبنان ، د ط ، 2005 .
6. أبو بكر ابن دريد ، الملاحن ، تحقيق عبد الإله نهبان ، وزارة الثقافة ، سوريا ، د ط ، 1992 .
7. أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي ، العين ، تحقيق مهدي الخزومي و إبراهيم السامرائي ، ج 2 ، دار ومكتبة الهلال ، بيروت ، د ط ، د ت ، ج 2 .
8. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، البيان و التبيين ، تحقيق محمد عبد السلام هارون ، مكتبة الخانجي ، مصر ، ط 1 ، 1998 ، ج 1 .
9. أبو نصر الحسن بن أسد الفارقي، الإفصاح في شرح أبيات مشكلة الإعراب ، تحقيق سعيد الأفغاني، جامعة بنغازي ، ليبيا ، ط 2 ، 1974 .

10. أبو هلال الحسن العسكري، كتاب الصناعتين الكتابة و الشعر، تحقيق علي محمد الجاوي و محمد أبو الفضل ابراهيم ، دار إحياء الكتب العربية ، مصر ، ط 1 ، 1952 .
11. ابن هشام الأنصاري، الألغاز النحوية ، تحقيق موفق فوزي جبر، دار الكتاب العربي، سوريا، ط1 ، 1997 .
12. برهان الدين ابراهيم بن فرحون ، درة الغواص في محاضرة الخواص ، تحقيق محمد أبو الأجفان و عثمان بطيخ ، دار التراث ، مصر، د ط ، د ت .
13. تقي الدين أبو بكر علي ابن حجة الحموي ، خزانة الأدب و غاية الأرب ، شرح عصام شعيتو ، دار الهلال ، لبنان ، ط 1، 1987 ، ج 2 .
14. جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري ، المحاجة بالمسائل النحوية ، تحقيق بهيجة باقر الحسيني ، د ط ، 1978، مطبعة أسعد ، العراق .
15. خير الدين الزركلي ، الأعلام ، دار العلم للملايين ، لبنان ، ط15 ، 2002 ، ج 4 .
16. ديوان امريء القيس ، ضبط و تصحيح مصطفى عبد الشافي ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، ط5 ، 2004 .
17. شهاب الدين النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، تحقيق مفيد قميحة و آخرين ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، ط1، 2004 ، ج 3 .
18. صفي الدين الحلبي ، شرح الكافية البديعية في علوم البلاغة و محاسن البديع ، تحقيق نسيب نشاوي، دار صادر، لبنان ، ط 2 ، 1992 .
19. ضياء الدين ابن الأثير ، المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر ، تقديم أحمد الحوفي و بدوي طبانة ، دار نهضة مصر، مصر ، د ط ، د ت ، ج 3 .
20. طاش كبرى زاده أحمد بن مصطفى ، مفتاح السعادة و مصباح السيادة في موضوعات العلوم ، دار الكتب العلمية ، لبنان ، ط 1، 1985 ، ج 1 .
21. جلال الدين السيوطي ، المزهر في علوم اللغة و أنواعها ، شرح محمد أحمد جاد المولى بك و آخرين ، المكتبة العصرية ، لبنان ، د ط ، 1986 ، ج 1 .
22. علي بن عدلان الموصلبي النحوي ، الانتخاب لكشف الأبيات المشككة الإعراب ، تحقيق حاتم صالح الضامن ، مؤسسة الرسالة ، د ط ، 1985 .
23. علي صدر الدين بن معصوم المدني ، أنوار الربيع في أنواع البديع ، تحقيق شاكر هادي شكر ، مطبعة النعمان ، العراق ، ط 1 ، 1969 ، ج 6 .
24. محمد العبد ، إبداع الدلالة في الشعر الجاهلي ، دار المعارف ، مصر، ط1 ، د ت .
25. محمد مراياتي و يحي مير علم و محمد حسان الطيان ، علم التعمية و استخراج المعنى عند العرب ، دار طلاس ، سوريا ، د ط ، د ت .
26. محمد مرتضى الحسيني الزبيدي ، تاج العروس من جواهر القاموس ، تحقيق عبد الحميد قطامش ، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب ، الكويت ، 2001 ، ط 1، ج 39 .
27. الملا عصام الاسفراييني ، شرح منظومة الألغاز النحوية ، تحقيق علي حسين البواب ، مكتبة الثقافة الدينية مصر ، د ط ، 2000 .
28. يحي بن حمزة بن علي ابن ابراهيم العلوي البيني ، الطرار، تحقيق عبد الحميد هندواوي ، المكتبة العصرية، لبنان ، ط 1 ، 2002 ، ج 3 .

الرسائل و الأطروحات :

29. أبو الحسن علم الدين السخاوي ، منير الدياجي و در التناجي و فوز المحاجي بجوز الأحاجي ، تحقيق سلامة عبد القادر المرافي ، أطروحة دكتوراه ، جامعة أم القرى ، السعودية ، 1985 .

المجلات :

30. أبو الحسين أحمد بن فارس ، فتيا فقيه العرب ، مجلة المجمع العلمي العربي ، سوريا ، ج 1، المجلد 33 ، 1958 ، ص 443 - ص 656 .